

## تحديات العولمة والنهوض باللغة العربية

إعداد : أ. فتحي الملا

تفرض الظروف العالمية الراهنة، والأحداث الجارية، وتوجهات عصر العولمة وتحدياته، ضرورة النظر في وضع اللغة العربية، في ضوء هذه المستجدات العالمية، باعتبار اللغة العربية لغة الدين الإسلامي الخفيف فلا تصح أداء الفرائض إلا بلسان عربي مبين، وهي إلى جانب ذلك، لغة التراث الحضاري، فهي بذلك اللغة العربية التي تمثل الرباط الوثيق بين أبناء هذه الأمة الإسلامية على اختلاف البلدان والثقافات، فضلاً عن دورها في تحقيق التواصل والاستمرار اللغوي بين أبنائها، منذ أقدم نص مكتوب، حتى آخر ما أنتجه الحاسوب، والشبكة العالمية للمعلومات، فاللغة العربية انعكاس لحياة الأمة الإسلامية.. وضرورة ماسة لتماسكها ووحدتها وقوتها.

ولا مجال هنا للإفاضة في أهمية اللغة في صوغ الوجدان، وتوحيد الرؤى، وشحن الهمم، واستنفار الطاقات..

ذلك أن مقتضيات الواقع الذي نلسمه الآن في عالمنا المعاصر يؤكد أن الذين يتباعدون لغة، وتاريخاً، وتراثاً، يتجمعون الآن في اتحاد، ويحتشدون طلباً للمصلحة، وتحقيقاً للقوة والمنعة.

وإذا كانت اللغة العربية، كما يقول العالم الجليل الدكتور شوقي ضيف رئيس المجمع اللغوي: «هي أقوى لغة عالمية في التكيف مع الحضارات والثقافات، خرجت من جزيرة العرب على أيدي البدو، وإذا بها تتسع لحضارات العالم جميعاً، وتعد هي القائد للغات العالم وحضاراتهم لمدة ستة قرون من القرن الثاني الهجري إلى القرن الثامن الهجري، هذا الحضور العالمي للغة العربية، والتفاعل الحي مع الحضارات العالمية المعاصرة لنهضتها بعد ظهور الإسلام، قد أكد خصائص اللغة العربية ومقدرتها على أن تكون لغة عالمية..».

وها نحن الآن فى عصر العولمة الطاغية، تواجه لغتنا العربية تحديات شتى، لكنها تصدى لهذه المواجهة وهى فى واقع يراها بعض علمائها: «لغة مهملة منخلفة لا تكاد تحيا بين أبنائها رغم ما تملكه من إمكانيات ضخمة ووسائل متنوعة وأسباب متعددة تضمن لها البقاء والاستمرار... نعم صارت اللغة العربية بين أهلها، لغة يلفظها أبنائها فى كل مجالات الحياة وينظرون إليها نظرة ازدراء وامتهان. ويتعالون عليها فى كل مناسبة وبغير مناسبة، لغة لا يخجل من الخطأ فيها كبير أو صغير، ولا يسعى لإتقانها إنسان ولا يعبأ أن يجيدها مثقف».

وكما يقولون، فالتاريخ يعيد نفسه، فقد واجهت لغتنا العربية على امتداد تاريخها مواقف مماثلة، وأزمات مختلفة، وتحديات متباعدة وصراعات شتى. فالصراع الحضارى الدائر الآن ومحاولة العولمة الدعوية والمستميّة، السيطرة على المجتمعات والتسلط على الثقافات، وفرض الهيمنة.. يعيد إلى الأذهان نفس الموقف الذى واجهته لغتنا العربية من قبل فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.. حين احتل الاستعمار شرق الوطن العربى وغربه، وفرض لغته وأغرى بها الجماهير، وجعل إجادتها شرطاً من شروط الحصول على لقمة العيش، فاضطروهم إلى تعلمها، وجعلها لغة أبناء الصفوة وأهل الخطوة.. فقد فرض الإنجليز التعليم باللغة الإنجليزية فى مصر منذ المرحلة الابتدائية عام ١٨٨٩ أى بعد سنوات سبع أو سبعة - كلاهما صواب - من احتلاله مصر عام ١٨٨٢م.

إلا أن نواب الأمة استجمعوا شجاعتهم، واستثاروا حميتهم، واستنفروا طاقاتهم، وطالبوا فى عام ١٩٠٧م بعودة التعليم إلى اللغة العربية منذ مراحل التعليم الابتدائى وفرض التعليم باللغة الإنجليزية فى هذه المراحل الباكرة من التعليم..

ومن الأسف، أن سعد باشا زغلول وكان ناظر المعارف وقثذ، ينبرى لتسفيه الفكرة الوطنية: ويقول : لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا في الجمارك والبوستة والمحاكم المختلطة والمصالح العديدة أو البنوك والشركات الأجنبية.. (عمر الدسوقي - الأدب الحديث).

ويزداد أسفنا، ونحن نسجل هنا أن ما رفضه الوطنيون المصريون عام ١٩٠٧، يتهاقت عليه التربويون العرب في السنوات الأخيرة ويسوغونه، وهو الدعوة إلى تعليم الأطفال اللغة الأجنبية، دونما نظر للمحاذير الدينية والقومية التي تراعيها معظم الدول المتقدمة الآن لحماية ألسنة أبنائها من أثر اللغات الأجنبية في مرحلة الطفولة.

وتزداد الحرف الضروس ضراوة، ضد اللغة العربية، في صور شتى وأشكال متباينة، إذ تتعالى على يد الإنجليز الدعوة إلى إعلاء اللهجة العامية، واتخاذها لغة للثقافة والإعلام على يد الإنجليزى ويلكوكس وويلمور وإسكندر المعلوف السورى، الذى دعا المصريين إلى ترك الفصحى إلى العامية، مع البدء بتحول الإعلام المقروء من صحف ومجلات إلى اللهجة العامية ونبذ الفصحى وحصرها في ثنايا الفصل بل في حصة اللغة العربية وحدها.

وتوالى الدعوات إلى العامية، خافتة حيناً وصاخبة أحياناً، بدافع شعوبى، للنيل من لغة القرآن الكريم، لتجد هذه الدعوات الضالة من يدعمها من أبناء العروبة والإسلام، ليكونوا عوناً لأعدائها، ويصدق فيهم قول شاعرنا الحكيم:

وأعرق خلق الله فى الذل أمة تضام، ومنها للذى ضامها جند

واستمر خصوم العربية فى الكيد لها، والنيل منها، وظلت اللغة العربية الفصحى، تخلق فى بعض وسائل الإعلام عمداً مع سبق الإصرار، كأن الإعلام وإن كان يقدم ألواناً من الفصحى فى نشرات الأخبار إلا أن أكثر برامجهم ومسلسلاته تلمس الفصحى وتهدد النطق الصحيح للحروف العربية وتغرى

بالعامى المشاهدين والمستمعين، مما يوحى أن العاملين بالإعلام كأنهم على عداوة راسخة مع العربية..

وإذا كان عصر القنوات الفضائية العربية والإنترنت أتاح الوصول باللغة العربية، إلى آفاق العالم شرقه وغربه وإلى بيئات أجنبية، وعربية إسلامية، وغير إسلامية مترامية فى أقطار الدنيا، فإن الحاجة إلى النهوض بالفصحى تبدو ماسة أكثر من أى وقت مضى، لأن اللهجات العامية المتعددة بتعدد أقطارها، فى بعض هذه القنوات الفضائية العربية، يتعذر فهمها فى هذه البيئات وإنما تفهم اللغة العربية الفصحى وحدها، التى يجب أن يتوحد الخطاب الإسلامى والعربى بها.. لنشر ثقافتنا والتعبير عن ذاتيتنا العربية وتأكيد هويتنا الإسلامية.

إن الواقع المتردى الذى تعيشه اللغة العربية منذ مطلع القرن الماضى، لم يكن بفعل فاعل أجنبى كالأستعمار وحده، وإنما شارك فى تعميق هذا الواقع المؤسف، تنكر أصحاب القرار للغة العربية، وفتنتهم باللغات الأجنبية وثقافتها وقيم مجتمعاتها، فضلاً عن الغفلة بأهمية الفصحى ودورها وفعاليتها، باعتبارها أقوى خيط فى نسيج هذه الأمة المسلمة.. هذه الغفلة، وقد طمست عقول علماء الأمة الإسلامية، وran على قلوبهم، فلم يبصروا طريقهم بين الأمم، ولا نهضوا بمسؤولياتهم تجاه دينهم ولغتهم وحضارتهم التى لم يقدرها حق قدرها.

لقد لوحظ أنه فى فترات الدعوة إلى القومية العربية والوحدة السياسية بين الأقطار العربية أن سقطت سهواً أو أسقطت عمداً، غابت العربية عن أن تكون ضمن الخطط والإستراتيجيات المعدة لهذه الوحدة..

ولذلك فإنه من المؤسف أن يدخل العرب والمسلمون الآن، عصر العولمة، ذى الصراعات الحاسمة، والقوى المتكاملة الباطلة لا عزلاً من الأسلحة المادية وحسب، وإنما عزلاً من الأسلحة المعنوية وأهمها سلاح الثقافة الذى يستمد قوة تأثيره من اللغة الفصحى الموحدة وهى خط الدفاع الأول عن الهوية العربية والإسلامية.

إن الأجواء القديمة التى اجتاحت الأمة العربية فى ظل الاستعمار، والاحتلال العسكرى المباشر، تظل الآن برأسها فى عصر العولمة، متمثلة فى التوجهات المعلنة والصريحة للسيطرة على الفكر العربى، واحتلال وغزو للعقول العربية والإسلامية، وهو ما لا يقل ضراوة عن الاحتلال الغربى السابق، وإن اختلفت الوسائل.. إن الهدف واحد، وهذه دعاوى العولمة، والقرية الكونية الصغيرة، تشيع الآن فكراً غريباً، وجد طريقه إلى عقول بعض المفكرين العرب والمسلمون فأصبحت اللغة الأجنبية لدى بعض المنظرين للتعليم والثقافة فى عالمنا الإسلامى مطلباً وطنياً يزاحم اللغة العربية الفصيحة فى عقر دارها.. وأصبحت العامية مطلباً مقبولاً ثقافياً فى أوساط الأدب، فالشعر عامى والقصيدة عامية والفصحى تكاد تكون مستبعدة فى كثير من المجالات. وفى هذا الإطار نلاحظ، أن وزير الثقافة والتعليم اللبنانى، يصدر فى سبتمبر عام ١٩٩٧ تعميماً للجامعات، طالباً تدريس الزجل لاعتباره ديواناً لبنانياً كالشعر العربى سواء بسواء.

وفى قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة القاهرة، تتسع المساحة للأدب الشعبى العامى، ويحتل فى برامج الدراسة، ساعات أطول من ذى قبل، على حساب الوقت المخصص للثقافة العربية الفصيحة..

إن التهديد بأخطار العولمة، والهيمنة الغربية، والاستلاب الثقافى، والتبعية السياسية، والاقتصادية، وتوجه العالم إلى تكتلات كالسوق الأوروبية المشتركة، والاتحاد الأوروبى، والتقنيات الإلكترونية، التى ضاعفت من التأثير الأجنبى.. كل ذلك يجب أن يضعه المسئولون عن اللغة العربية بالجامعات نصب أعينهم.. ومحل أنظارهم.. وهذا هو دور رابطة الجامعات الإسلامية.

إن الأخطار المحدقة والمتسارعة التى تفرضها تحديات العولمة لا بد أن تشحذ همم الجامعات، إلى البقطة، لما يحاك لثقافتنا الإسلامية، ولغتنا العربية الفصحى، من غزو ثقافى فضائى.. وإذا كانت رابطة الجامعات الإسلامية تمثل

فى جانب من رسالتها، تكتلاً جامعياً يضم صفوة العلماء والباحثين، فإن الأمل كبير فى أن تنهض الرابطة بهذه المسئولية وأن تتولى مهمة التخطيط للأولويات ولما هو آجل وعاجل من إستراتيجيات للنهوض باللغة العربية نهضة تدعم كيانها، وتعيد لها عافيتها، وتسترد بها موصول تاريخها الحضارى العريق. وهنا نطرح بعض الأفكار فى هذا المجال:

أولاً: إن النهوض باللغة العربية مسئولية ضخمة، وأمانة دينية لا مناص من مواجهتها الآن وليس غداً..

وإذا كانت دساتير الدول الإسلامية كلها، تحض على أن اللغة العربية هى اللغة الرسمية، فما هى الإجراءات التى تتخذها الدول وأين هى، والقوانين التى نسن لمعاقبة الخارجين على هذا النص الدستورى؟

فى الكونجرس الأمريكى صاح أحدهم: إن الدولة تشرع القوانين لمعاقبة اللصوص والقتلة.. فأين هى القوانين التى تعاقب الخارجين على قواعد اللغة، لماذا لا نعاقب الذين يفسدون اللغة ويتهانون بمقدساتها؟

هل نحن فى حاجة لمثل هذا العضو الأمريكى، لينبهنا إلى ما غفلنا عنه زمناً، مما أدى بالعربية إلى هذا التردى المتفاقم وإلى أن تنحدر اللغة العربية من عليائها، ولا يقدر معلموها وأساتذتها على ضبط ألسنتهم وأقلامهم، والتحدث بها بلا أخطاء..

نحن بحاجة إلى تشريعات رسمية تقترحها رابطة الجامعات الإسلامية، وفيها من أعلام القانون كفاءات غيرة مخصصة.. نريد تشريعات رسمية وأنظمة قانونية، تحمى اللغة العربية الفصحى وتصونها من العبث، ومزاحمة اللغات الأجنبية لها فى الإعلانات واللافئات وشاشات التلفزيون وبرامج الإذاعة.

ولسنا بدعاً فى هذا فاللغة الفرنسية صدر لها قانون عام ١٩٧٥ يوقع غرامات على مخالفى اللغة، وكذلك أصدرت رأس الخيمة قراراً بمثلاً،

بغرامات للكلمات الخطأ فى اللافتات والإعلانات تحريماً للفصحى والتزاماً بها.  
ثانياً: نريد إلى جانب هذه التشريعات، حملات ترويجية للفصحى، دعاية وإعلاناً لها، لإثارة الشعور القومى العام، نحو الاعتزاز بالفصحى.  
وليس هذا بغريب فأهل أيرلندا نفذوا حملة عام ١٩٧٨ تحت شعار «لغتنا جزء من كيانتنا»..

كم نحن بحاجة إلى رفع مثل هذا الشعار.. لغتنا جزء من كيانتنا.  
وفى إندونيسيا يصفون شهر أكتوبر من كل عام بأنه «شهر اللغة القومية»،  
وفى سنغافورة حملة دعائية للغة الماندرين وهى اللغة الصينية لبيكين.  
نريد من هذه الحملات أن تعزز ثقتنا فى أنفسنا وهذا ما نشقده فعلاً.. هل يعلم شبابنا أن اللغة الإنجليزية تضم ١٢٦٠ كلمة قرآنية؟ وكذلك سائر اللغات الحية كالأسبانية والإيطالية وغيرها، نريد مزيداً من الحب والتقدير والاعتزاز بلغتنا العربية التى اختارها الله - سبحانه وتعالى - من بين اللغات لتبليغ رسالته إلى العالم حتى تقوم الساعة.. «إنا أنزلناه قرآنًا عربياً لعلكم تعقلون».. وقوله - سبحانه - «بلسان عربى مبين».. وقول رسولنا الكريم ﷺ: «أحب العربية لثلاث: لأنى عربى، والقرآن عربى، ولسان أهل الجنة فى الجنة عربى». ألا تستحق العربية أن نجلها اقتداء برسولنا الكريم؟

ثالثاً: إن الإفادة الحقيقية من تقنية الحواسب الآلية، ما ينتج عنها من علوم، لا تؤتى أكلها، إلا إذا قمنا بتعريب هذه التقنية، وتوطينها فى العالم الإسلامى كما تفعل كثير من دول العالم الآن.

نريد أن نتعامل مع عصر المعلوماتية، من منظور عربى، ولغة عربية فصيحة موحدة ومنضبطة سهلة وميسورة، محببة إلى القلوب والعقول.  
نريد العربية الفصحى، لغة موحدة فى مصطلحات علومها، وفى ترجماتها، وفى تعاملها مع العلوم الحديثة، لغة، يجب أن نبدأ فنجرى عليها البحوث، ونطوعها لهذه التقنية العالمية الجديدة.

إن رابطة الجامعات الإسلامية، مسئولة عن إشاعة فكر جديد متكامل واع، للنهوض باللغة العربية، نهضة تقيلها من عثراتها، وتنفع في روحها بعثاً جديداً، تستعيد بها حضاراتها، وتواصل ما انقطع من مسيرتها العالمية..

إن فوائد عديدة، يجنيها الإنسان العربى المسلم، لو تطورت برامج الترجمة الآلية لنقل العلوم والمعارف العالمية من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية، وهو الدور الذى قام به أجدادنا حين ترجموا علوم اليونان وحضارتهم إلى العربية، فكان ذلك هو المقدمة الطبيعية لنشأة الحضارة الإسلامية المعطاءة.. فهل آن لجامعاتنا أن تواصل هذه المسيرة الحضارية؟

ما هى دلالات ذلك وما مقتضياته، ومسئوليته التى تقع على كاهلنا جميعاً..

رابعاً: نريد من الجامعات الإسلامية، أن تقدم للعالم كله، صورة دقيقة وموضوعية تعبر عن عطاء اللغة العربية للعالم.. كيف أضاعت العربية ظلمات الجهل فى أوروبا الغارقة فى دياجير الظلام، بكتب عربية اللغة، إسلامية الفكر، عالمية العطاء.

نريد أن نعيد للأذهان، كيف كان رجالها من كل الأجناس يلتقون فى دار الحكمة وهى بمثابة الجامعة الآن، يلتقون فى ود وتعاون ومحبة دون تعال أو كبرياء، لا يسرقون بحوثاً لغيرهم وينسبونونها لأنفسهم، متجردين للحقيقة والعلم وحدهما، شعارهم دائماً رب زدنى علماً فاستحقوا الخلود.

خامساً: نريد من الجامعات الإسلامية، أن تكشف لنا فى ضوء علوم اللغة، جوهر هذه اللغة العربية المتميزة، وخصائصها الذاتية العريقة، وقدرتها الفذة على أن تعطى للعالم بسخاء.. وأن تقهر ما عداها من لغات.. هذه الخصائص الفريدة للغة العربية هى التى تفسر لماذا مكث اليونان فى مصر ولم تنتشر فيها اللغة اليونانية.

ومكث الرومان فى تونس ولم تنتشر فيها اللغة اللاتينية.

أما العربية حيث دخلت مصر وتونس وغيرها، انتشرت وبقيت وشاعت..  
سادساً: نريد من رابطة الجامعات الإسلامية وفي هذه الظروف الراهنة التي يحاول الغرب فيها الانتقاص من حضارتنا الإسلامية، أن تنهض الجامعات الإسلامية، بمسئولية كبيرة في لفت نظر أعداء هذه الحضارة الإسلامية، إلى أن ما ينعمون به من حضارة علمية معاصرة، قد بنيت على أساس عربى لغة وعلمًا، فالصفر - وهو أقل الأشياء قيمة - كان أعظم هدية أهداها العرب لأوروبا.. حين كان الغربيون حتى القرن الثانى عشر الميلادى، لا يعلمون من أمر هذا الصفر شيئاً.

سابعاً: إن الجامعات الإسلامية مطالبة بأن، تعلم شبابها، ما قاله أعداء العرب عنها، من أمثال الفيلسوف الفرنسى رينان فى محاضرة له عن «الإسلام والعالم» قال رينان فى صراحة يحسد عليها:

«إن ترجمة الكتب العربية علمت أوروبا ما لم تعلمه، وفتقت أذهاننا، وفى الوقت الذى توفى فيه ابن رشد آخر فلاسفة العرب بالأندلس، حزيناً منسياً، كانت أوروبا آخذة بجهد فى اكتساب العلوم والفلسفة عنه، وبذلك وجدت أوروبا ما يلائمها عند العرب فشرعت فى التقدم. وفى الانقلاب العجيب الذى كان مآله إنقاذ العقل الإنسانى من كل حاجب، لقد نقلنا الكتب العربية المهمة إلى اللغة اللاتينية ودرست هذه المؤلفات فى جامعة باريس، وخرجت بها بلادنا من الجهل الذى كانت عليه منذ خمسمائة سنة وكنا لا نزال حتى ذلك التاريخ - نحن أهالى أوروبا - تلامذة العرب».

نريد من الجامعات الإسلامية أن تعمق هذا الفهم الصحيح لحقيقة اللغة العربية والرسالة الحضارية التى نشرتها فى العالم كله، ولا يزال العالم حتى اليوم يستضيء بأنوارها، وإن كان يبدو جاحداً فضلها، منكرًا عطاءها.  
ولنستمع مرة أخرى إلى ما يقوله رينان العالم الفرنسى الذى يعتبر من أشد أعداء العرب:

«جائز أن يقال إننا معشر الأوروبيين بلغنا درجة العرب في الحضارة والتقدم بعد نصف قرن من ترجمة كتبهم، أى فى أواسط القرن الثانى عشر الميلادى، بل يجوز أن يقال إننا وصلنا درجتهم فى عام ١٢٧٥ ميلادية فى حين كانوا هم واقفين عن التقدم، وبينما كان ابن رشد مشهوراً عندنا شهرة أرسطو كان بين إخوانه من العرب متركاً فى زوايا النسيان حتى أنه منذ سنة ١٢٠٠م لم يظهر بين العرب فيلسوف عربى واحد».

يقول رينان:

لم يظهر بين العرب فيلسوف عربى واحد من ١٢٠٠م .

هل تستطيع جامعاتنا أن تحيب على هذا السؤال:

لماذا لم يظهر بين العرب والمسلمين فيلسوف عربى واحد منذ عام ١٢٠٠م؟ رغم يسر المعيشة، وتدفق الأموال وتحسن الأحوال، وتوافر المكتبات فى جامعاتنا.. ولماذا لم يظهر عالم فى حجم ابن رشد أو الفارابى، وابن سينا، والبيرونى، والإدريسى والخوارزمى؟؟

لماذا لم يظهر فى جامعاتنا عالم فى اللغة العربية فى حجم ابن منظور وسيبويه والخليل!!؟

هل أجذبت القرائح العربية؟ ألسنا أحفاداً لخير أجداد أضاءوا العالم بنور بصائرهم، وأمدوه بشمرات قرائحهم؟؟

إننى هنا أستعير قول الإيطالى بتراىك حين صاح فى وجه الطليان الذين استكانوا لسيطرة اللغة العربية التى انتشرت فى بلادهم: قال بتراىك فى أسى مرير:

واعجباً لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيباً بعد ديموستين، وأبدع فرجيل بعد هوميروس، فهل قدر علينا ألا نبذل بعد العرب؟ فيا للحماقة ويا للخيبة، ويا للعبقريّة إيطاليا الخاملة..

وأردد سطره الأخير، أوجهه لجامعاتنا العريقة: هل قدر علينا ألا نبذل بعد العرب؟ فيا للحماقة ويا للخيبة ويا لعبقريتنا الخاملة!!.

وإذا تركنا الفرنسى ريتان والإيطالى بترارك اللذين أشادا بحضارتنا الإسلامية، ننتقل إلى أسبانيا.

وهنا صيحة مماثلة للأسقف الأسبانى فى قرطبة بعد أن فتحها العرب فقد اكتسحت اللغة العربية آنذ اللغات المنتشرة فى أسبانيا.. يقول الأسقف الأسبانى فى حيرة:

«وا أسفاه الشبان الأسبانيون ينسون لغتهم اللاتينية، لم نعد نجد بين الآلاف منا واحد يستطيع كتابة رسالة إلى صديق بلغة لاتينية مقبولة. الشباب الأسبانى بدأوا يتكثرون للغتهم الأصلية، ويقبلون على تعلم اللغة الدخيلة ألا وهى اللغة العربية.. عجباً لهذه اللغة العربية التى تجذب الشباب الأسبانى إليها.. من يقرأ الشروح اللاتينية للأناجيل؟ ما سر العربية الذى يجعل الشباب الأسبانى يثشق الأموال الضخمة فى جمع الكتب العربية وقراءة الأدب العربى؟!». انتهى كلام الأسقف الأسبانى .. ولا يزال سؤاله قائماً:

ما سر العربية الذى يجعل الشباب الأسبانى يثشق الأموال الضخمة فى جمع الكتب العربية وقراءة الأدب العربى؟  
هل تجيب جامعاتنا؟ هل تجيب كليات اللغة العربية بالأزهر وأقسام اللغة العربية ودار العلوم؟

فى الشهر الماضى يقول وزير خارجية شيلى للعرب: إنكم أمة عظيمة، أعظم كثيراً مما تتصورون أو تعرفون.

وهنا لا بد من المكاشفة والمصارحة.. إن جامعاتنا على كثرتها ووفرة ما تمنحه من شهادات الماجستير والدكتوراه فى اللغة العربية، لم تستطع حتى الآن أن تخدم هذه اللغة العربية العظيمة لا تعليمياً ولا بحثاً.

إننا مطالبون بمواجهة صريحة لعيوبنا ، لننقد ذاتنا، نقداً موضوعياً مجرداً من الهوى، نقداً لاذعاً وإن كان مؤلماً..

إن صبيحة حافظ إبراهيم بلسان اللغة العربية كانت منذ عام ١٩٠٣ مطلع القرن الماضي، ولم تكن جامعاتنا الحديثة قد ظهرت بعد الوجود هذه الصبيحة بكل معانيها لا تزال قائمة بنصها ولفظها فلنسمع صبيحة حافظ إبراهيم فى قوله:

أرى كل يومًا بالجرائد مزلقًا      من القبر يدنينى بغير أناة  
وسعت كتاب الله لفظًا وغاية      وما ضقت عن آى به وعظات  
فكيف أضيق اليوم عن وصف      آلة وتنسيق أسماء لمخترعات  
أتركنى قومى عفا الله عنهم      إلى لغة لم تتصلل برواة؟  
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن      فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى؟  
هذه الصبيحة بنصها وبكلماتها، لا تزال قائمة تطرق أسماعنا، وتذكرنا  
بجمودنا، ونكوصنا، وتقاعسنا، نعم تقاعسنا، ولا خير فىنا إن لم نقلها.. لقد  
فشلنا - فى الجامعات - نعم فشلنا فى أن نحل مشكلة واحدة من مشاكل اللغة  
العربية..

صحيح أننا نظمنا مؤتمرات عدة، وأقمنا ندوات لا حصر لها، وأعدنا  
حلقات نقاشية لا تحصى، ونظمنا سجلًا ضخماً من التوصيات تحتفظ به رابطة  
الجامعات الإسلامية، وقد أحسنت رابطة الجامعات صنعاً بجمع هذه التوصيات  
العديدة فى مجلد واحد، لتوثيق هذه التوصيات.. ولكننا اكتفينا للأسف  
بإصدار هذه التوصيات وتنميقها.. ولم نخط خطوة عملية واحدة نحو النهوض  
باللغة العربية فبقيت اللغة تنحدر وتردى ونحن غافلون أو متغافلون أو  
متكاسلون..

إننا مطالبون، بالاكْتفاء بما صدر من توصيات، والإقلاع عن عادة أراها ذميمة،  
وهى إصدار التوصيات دون نظر أو تدقيق فيما سبق أن صدر منها... وكأن  
التوصيات غاية فى حد ذاتها.. وليست وسيلة للإصلاح، أو خطوة مبدئية للانطلاق  
والعمل ولنسأل أنفسنا بصراحة وشجاعة ماذا نريد من النهوض بالعربية؟؟

وأنا أجيب بكلمات محدودة نريدها لغة حضارة، ولغة علم، ولغة حياة،  
ولغة تواصل، ولغة فكر..

لقد وقف المرحوم أحمد حسن الزيات فى إحدى جلسات مجمعنا اللغوى  
الموقر يعبر عن هذا المعنى بقوله:

«واعجباً لقد استطاعت لغتنا العربية منذ أربعة عشر قرناً، أن تصف ناقة  
طرفة بن العبد، جزءاً جزءاً فى ثلاثين بيتاً من الشعر.. ولكنها الآن تقف أمام  
سيارة فورد، صماء بكماء بلهاء تشير ولا تسمى...».

وشرح أسباب العلة والآفة التى أصابت لغتنا العربية بقوله:  
«إن أدبنا العربى على سعته وجماله فوضى.. فلا حدوده مرسومة ولا  
مناهجه معلومة ولا قواعده ثابتة.. فنحوه، أصداء مبهمه للهجات القبائل  
العربية الجاهلية..

ولا يكاد يتفق النحاة على وجه من وجوه الإعراب حتى ليوشك أن يكون  
كل كلام صواباً وكل كلام خطأ.

والسبب فى ذلك فى رأى الزيات: «أن أدبنا العربى لم يكن أدب أمة  
واحدة، ولا مظهر ثقافة واحدة، ولا محصول لسان واحد، إنما هو أدب الأمم  
المختلفة التى امتزجت فى الأمة الإسلامية فى العصر العباسى فهو أشبه بالخبر  
لكل نهر فيه مصب».

ويقول الزيات معالجاً هذا الوضع:

الحال تنادى بإعادة النظر فى علوم الأدب وفنون الإنشاء فيصلح الفاسد  
ويتم الناقص فتتسع لغتنا العربية لأغراض الحياة، ومطالب العصر.

ثامناً: إن قضية النهوض باللغة العربية، لا ينبغى أن تكون أولوياتها - فى  
نظرنا - تعليم العربية للناطقين أو لغير الناطقين بها... إن معنى ذلك أننا نصدر  
اللغة العربية كما هى فى واقعها الآن، للآخرين.. والتصدير فى حد ذاته، هدف  
لا غبار عليه، ولكن يسبقه بطبيعة الحال تفهم وتدقيق فى المادة التى نصدرها..

أى لغة عربية سنصدرها؟ لا بد أولاً من معالجة قضايا اللغة العربية ذاتها، قبل تصديرها للآخرين لأنها حينئذ ستكون فى منافسة مع غيرها من اللغات فلا بد من تيسيرها وإصلاحها وتأهيلها لهذه المنافسة..

الأولوية فى النهوض باللغة العربية تكمن فى عدة نقاط منها:

(١) البدء بتحليل التوصيات السابقة الصادرة عن كافة المؤتمرات والندوات لتكرارها والاستفادة منها.

(٢) الاهتمام بجوانب البحث العلمى اللغوى إلى جانب التربوى والتعليمى، فيما يتعلق باللغة العربية وعلومها ويشمل ذلك:

(أ) الدراسة والبحث والتنقيب عن الألفاظ الفصيحة الشائعة فى لغتنا العامة والتي يحجم الكثيرون عن استعمالها ظناً من أنها عامية وهى فصيحة فعلاً، مثل كلمات : جوعان/ شبعان/ عطشان/ زعق/ حظ / شاف/ زرر/ بص ، ولا بد من إدراج هذه الألفاظ السهلة الفصيحة فى الكتب المدرسية وفى الإعلام ليألفها الناس ويستعملونها بلا تردد.

(ب) توجيه أقسام اللغة العربية إلى النزول إلى الأسواق والمتاجر ومحلات الحرفيين وتسجيل صوتى للغة الشارع والمصنع وتحليل هذه الألفاظ وبيان ما له علاقة بالفصحى وما ليس له، فىمكن إفساح المجال له وبذلك تتسع الفصحى لتكون لغة الحياة اليومية، ولغة التعامل بين الناس على اختلاف طوائفهم.. وذلك باعتبار أن اللغة ملك لنا، كما يقول طه حسين:

«لغتنا العربية يسر لا عسر، ونحن نملكها، كما كان القدماء يملكونها، ولنا أن نضيف إليها ما نحتاج إليه من ألفاظ لم تكن مستعملة فى العصر القديم»،  
فحق وضع ألفاظ جديدة حق مطلق للفرد والمجتمع.

(ج) توحيد جهود الترجمة والتعريب بين الجامعات والجامع اللغوية العديدة بحيث يكون هناك تنسيق شامل بين هذه الجهود.

(د) توحيد الأرقام العربية بين الدول العربية وحسم الخلاف حولها، بحيث

تكون هذه الأرقام العربية هي المستعملة على نطاق الأمة الإسلامية كلها استهدافاً لوحدة الفكر والثقافة في الصحافة وغيرها.

(هـ) توحيد أسماء الشهور العربية الإسلامية وفرض تداولها، وتعميم استعمالها بين مشرق العالم الإسلامى ومغربه.

(و) متابعة ألفاظ الحضارة التي فقد صباح مساء وكيفية ملاحقتها، ووضع المسميات العربية الفصيحة لها إن أمكن.

(ز) تيسير قواعد اللغة العربية نحواً وصرفاً، فيكفى ما قاله رئيس المجمع اللغوى بالقاهرة عنه من أن النحو العربى أكثره فاسد، فقواعده جافة صارمة وتقسيماته فلسفية مجردة، لا سبيل إلى إيجادتها إلا بالحفظ والتلقين دون أن تخلق سليقة أو ذوقاً، وقول الدكتور طه حسين - رحمه الله - : النحو العربى ضعيف فى أكثر مسائله.

(ح) حل مشكلة كتابة الأسماء بين الدول العربية، إذ إن بعضاً منها يضع كلمة (ابن) بين كل اسمين.. فلان بن فلان وظل المجمع يناقش هذه المسألة عشرين عاماً دون أن يصل بها إلى قرار .

(ط) توحيد المسميات الثقافية والتعليمية والإدارية بين الجامعات ووزارات التربية والتعليم بل وبين مختلف الوزارات العربية والإسلامية إذ إنهم يقولون: الفحوص، الامتحانات، الاختبارات وكلها مترادفات، ويقولون: مراتب النجاح وآخرون : تقديرات النجاح، ويقولون : الصف ، وآخرون يقولون الفصل.

(ى) فتح باب الاجتهاد فى اللغة وتوسعة منافذها وروافدها وذلك باتخاذ الخطوات التالية:

- ١- فتح باب الوضع للمحدثين بالاشتقاق والارتجال.
- ٢- إطلاق القياس ليشمل كل ما قيس من قبل وما لم يقس.
- ٣- تحرير السماع من قيود الزمان والمكان.
- ٤- الاعتداد بالألفاظ المولدة وتسويتها بالألفاظ الماثورة عند القدماء.

٥- ربط تعليم اللغة العربية بالقرآن الكريم منذ المراحل الأولى للدراسة للتعود على النطق الصحيح لمخارج الألفاظ من خلال المعامل الصوتية.

٦- إلزام وزارة التربية والتعليم (بالشكل) لجميع كتب المراحل السابقة على الجامعة بلا استثناء وأجهزة الكمبيوتر تيسر الآن هذه المهمة.

٧- الربط بين الجامعات ووزارات التربية والتعليم والمجامع اللغوية والإعلام والثقافة من خلال لجنة عليا تضع الخطط والبرامج وتتابع التنفيذ، حتى تتناسق الجهود، وتتسق الخطى؛ لأن ما تنهض به جهة من هذه الجهات قد تفسده أخرى، فأجهزة الإعلام مثلا بطريقة نطق بعض المذيعات للطاء والثاء وغيرها وبعاميتها المتفشية في المسلسلات والأفلام والإعلانات يمكن أن تؤثر، سلباً على كل الجهود التعليمية.

وأخيراً: فنحن بحاجة إلى وضع خطط عملية قابلة للتنفيذ ولا أقول توصيات تؤثر، فقد سئمنا هذا اللفظ، لكثرة ترده حتى صار معوقاً للعمل، نحن بحاجة إلى خطة عمل ومتابعة لتنفيذ ما يمكن من هذه الرؤى، حتى نستطيع أن ننهض باللغة العربية نهضة تحصنها وتقللها من عثراتها وتدعم كيانها في مواجهة تيارات العولمة وتحدياتها، وتأخذ بيدها من الواقع المتردى إلى الغد المأمول الذي يعيد لها مجدها وعزتها... لأنها لغة عزيزة بعزة الإسلام ولأنها لغة الذكر الحكيم..

يقول الإمام الشافعي عن العربية: على كل مسلم أن يتعلم من لسان العربي ما بلغه جهده، حتى يشهد به لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويتلو به كتاب الله وينطق بالذكر.

ويقول ابن تيمية: نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بفهم العربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وليس أدل على ذلك مما ذكره أحد علماء المسلمين الذين زاروا باكستان منذ سنوات فرآهم يقرأون القرآن قراءة خاطئة، أدت إلى معانى غاية فى الخطورة فهم يقرأون: «إنما أنا بشر مثلكم».. يقرأونها هكذا «إن ما أنا بشر مثلكم» فإن توكيد لما بعدها وهو «ما أنا بشر مثلكم» ولذلك يقولون إن النبى محمداً ﷺ نور وليس بشراً.. غفر الله لهم ولنا..

وأضيف إلى هذا صرخة بنت عدنان أى العربية على لسان الشاعر المسيحى المهاجر زكى قنصل:

|                               |                             |
|-------------------------------|-----------------------------|
| روحي فدى قطرة من دمعها القانى | بدمعة اليأس غصت بنت عدنان   |
| هلا استجبتم لشكواها وأشجاني   | يا أهل ودى - والآمال تجمعنا |
| ورافقت معيكم فى كل ميدان      | تغربت معكم فى كل دسكرة      |
| أن يهدما رغم طول العهد إيماني | لم يستطع مدفع الغازى ونقمته |
| حضارة الفرس فى حلقى وبستاني   | وسعت فلسفة اليونان فازدهرت  |
| فجرت أنوار إنجيلي وقرآني      | وحين أظلمت الآفاق واضطربت   |
| مهما ادلهم ومهما طال فجران    | يا بنت عدنان إن الليل يعقبه |
| فاستبشري بغد يا بنت عدنان     | إنى لأسمع عبر الأفق زغرودة  |

والله الموفق ..